محفوظ عبدالرحمن..

خزّافٌ يبحث عن الزمن المفقود

فاطمة ناعوت*

هـذا أغسـطس يعـودُ بـبرودة قلبـه وقسـوته التـى أعهدهـا. شـهرٌ يُناصبنـى العـداءَ منـذ طفولتـى. عـوّدنى هـذا الشـهرُ عـلى اختطـاف نُـدَف الـدفء مـن قلبـى منـذ وعيـتُ عـلى هـذا العـالم. قـال ت. اس. إليـوت، الشـاعرُ البريطانى، فى مطلـع قصيدة: «الأرضُ الخـراب»، إن إبريل أقـسى الشـهور. ولـو كان يضـع نظـارتى فـوق عينيـه، أو يحمـل قلبـى بين ضلوعـه، لقـال إن أغسـطس هـو الأقـسى. كلّـما حـطّ هـذا الشـهرُ رحالَـه عـلى الدنيـا ودقّ أوتـاد خيمتـه فى خِـصر كلّ عـام، أمسـكتُ قلبـى بيـدى لكيـلا يطـير خفقًـا مـن فـرط التطـيّر والوجـل. تُـرى ممَـن سـتحرمنى هـذا العـام أيهـا الشـهرُ اللـصُّ؟! مـن يـا تُـرى سـيكون طريدتـك لتسرقـه مـن دنيـاى لأبنـى لـه ركنـا أبديًّـا فى قلبـى الحزيـن؟ أظـلُّ أرمـق أحبتـى وأحـصى مـن سـافروا ومـن عـادوا ومـن شـغلتنى الحيـاةُ عنهـم ومـن شـغلتهم الحيـاةُ عنـى. مـن سـيحين حـينُ اختطافـه فى ركـب هـذا القنـاص؟ ولم يُخلـف القنـاصُ عهـده الحزيـن معـى فى أى عـام.

---

*شاعرة وكاتبة مصرية، نشر بجريدة المصري اليوم بتاريخ ٢٠ أغسطس٢٠١٧.

obeikan.com

عامًا بعد عامٍ يفطر قلبى. وعامًا إثر عام يقضم من قلبى قطعة من الفرح. طار أبى للسماء فى أغسطس. وفيه كذلك رحل كثيرٌ من آبائى وأمهاتى الروحيين وأساتذتى ومعلّماتى.

قبل أيام فقدت فى هذا الشهر البارد أستاذى د. رفعت السعيد. مَن تعلّمنا منه حبّ فقراء المزارعين والزود عن حقوقهم لأنهم ملحُ الأرض ومصدر حياتنا والأولى بالحياة لأنهم أربابُ الطمى حُماة الأخضر ورثة الطبيعة. واليوم، هذا السبت الحزين، يطير إلى فردوس الله أحدُ أرقى وأجمل من أنجبت مصر الطيبة. رحل أبٌ كريم كان أول من يهنّئنى على كتاب جديد صدر لى، أو جائزة أدبية نُلتها، أو مقال فى أعمدتى الصحفية راق له. كان فى كل مناسبة يرسل لى رسالة قصيرة هى قطعة من الأدب الرفيع تصنع يومى وتملأ قلبى بالفرح أن قامةً شاهقة فى دنيا الإبداع والكتابة بحجم العظيم «محفوظ عبدالرحمن»، قد وجد وقتًا بين مشاغله ليقرأ لى مقالا أو كتابًا أو خبرًا عنى. ما أعذب هذا! وطوال شهور غربتى الطولى فى العام الماضى، لم ينسنى يومًا، فكان بين الحين والحين يرسل كلمة تطمئننى وتُذكّرنى بأن هناك فى وطنى قلوبًا طيبة تدعو لى وتنتظر عودتى إلى أرض أجدادى حيث لا دفء ولا فرح ولا حبّ إلا بين ربوعها. واليوم، يختطف منى أغسطس اللصُّ مَن لا يُعوضه ألفُ أبٍ وألفُ أستاذ. رحل النبيلُ وترك نُبله ميراثًا هائلا

مـن الإبـداع والحـب نتـزوّد بـه كلّـما ضربنـا هجـيرُ القسـوة وفقـرُ الفنـون مـن حولنـا.

الجملـةُ النثريـة التـى يكتبهـا قلـمُ محفـوظ عبدالرحمـن، لا شىء يشـبهها. سـواءً كانـت فى روايـة أو سـيناريو مسلسـل أو فيلـم أو مسرحيـة، كلماتـه لهـا فـرادة لا تشـبه إلا نفسـها. لكـن تلـك الكلمـة، عـلى عذوبتهـا وشـاعريتها، كانـت حـادة كنصـل مـشرط مصقـول يشـقُّ ظهـر العـوار غائصًـا فى عمـق كـوارث عروبتنـا، منتقـدًا مفاسـدنا عسـانا نـبرأ مـن الويـل. شـغفه بالتاريـخ والتجـوال بـين أروقـة المـاضى منقّبًـا عـن اللؤلـؤ بـين ركام الصخـور الماضيـة، جعلـه يتمـرّد عـلى الزمـن، فنـذر عمـرَه الـثرى باحثًـا عـن اللحظـة المفقـودة. لهـذا بـرع فى نحـت عناويـن غريبـة لبعـض رواياتـه مثـل: «أربعـة فصـول شـتاء»، «اليـوم الثامـن». كيـف لعقـل أن يتصـور عامًـا بأربعـة فصـول مـن الشـتاء، أو أسـبوعًا يمتلـك يومًـا ثامنًـا؟! إنـه شـغف التنقيـب عـن المسـتحيل غـير الموجـود، مؤمنًـا بـأن غـيرَ الموجـود موجـودٌ فى مـكان أو زمـان مـا، ينتظـر مَـن يبحـث ومـن يُنقّـب. ورغـم ولعـه بكتابـة الروايـة التاريخيـة، إلا أنـه أبـدًا لم يحـذُ حـذوَ التاريـخ حـذوَ الحافـر، إنمـا جعـل منـه متّكئًـا يسـند إليـه ظهـره قبـل رحلـة الطـيران إلى اللامـكان واللازمـان واللاتاريـخ. ذاك هـو الإبـداع الـذى يُحلّـق بعيـدًا عـن أسـوار الواقـع بحثًـا عـن عـالم حالم لم يـأت أبـدًا. لكنـه أتى وتجـلّى فى مـداد قلـم هـذا الرجـل الاسـتثنائى. فى

كتابتـه عذوبـة ممزوجـة بالرفـض والتمـرّد. لأن «الإنسـان» كان دائمًـا صـوب عينيـه وهـو يكتـب.

كرامـة الإنسـان العـربى وحقـه فى الوجـود الكريـم كانـا محـور بحثـه بـين ركام التاريـخ. كان محفـوظ عبدالرحمـن خزّافًـا بارعًـا ينحـتُ فى صخـور المـاضى ليسـتخرج «الـتراث» مـن «المـوروث»، كـما يسـتخرج الصائـغُ قطـعَ الألمـاس مـن بـين صخـور الفحـم. كان دائـم البحـث عـن الفـارس الـذى يـأتى فـوق صهـوة حصانـه ليُعـزّ قومًـا أذلـوا أنفسـهم. فـإن لم يجد ذلـك البطـل، خلقَـه بـين صفـوف شـخوص رواياتـه ومسرحياتـه وأفلامـه. وكان جميـلا بشوشًـا نبيـلا وهـو يفعـل كل هـذا. لهـذا كافأتـه السـماءُ بزوجـة جميلـة تسـتحقه ويسـتحقُّها. صديقـة الفيلسـوف التـى سـهرنا عـلى صوتهـا الإذاعـى العـذب أيامًـا وسـنواتٍ لنسـمع منهـا حوارهـا مـع ذلـك الحكيـم الافـتراضى. الفنانـة الجميلـة سـميرة عبدالعزيـز. طوبـاكِ وطـوبى لمـن اخترتِـه رفيقًـا للـدرب الشـاقّ. محفـوظ عبدالرحمـن، قيمـة إبداعيـة هائلـة خسرتـه مـصرُ بالأمـس بعدمـا دوّنـت اسـمَه فى سـجّل الـشرف. يـا أبى الجميـل الـذى لم أحـبّ أحـدًا كـما أحببتـك، ولم يُكرمنـى أحـدٌ كـما أكرمتنـى، نـمْ مـلء جفنيـك وانعـم بملكـوت اللـه.

opelkan.com